● بعد أن انتهى مؤتمر "الكلامولوجيا" بالجزائر ●

تمخض الجبل.. فولد فأرًا

يعرف العرب ، بصفة عامة والمصريون بصفة خاصة ، بعض الحقائق السياسية الهامة والخطيرة التى كان ولايزال لها ابعادها ، واثارها فى توجيه السياسة العربية ، خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة ، ومن بين تلك الحقائق – وعلى سبيل المثال لا الحصر – موقف حزب البعث بجناحيه فى بغداد ودمشق من القضايا العربية . وبادئ فاقول ان لى رأيا قديما فى حزب البعث سبق أن نشرته فى صحيفة الثورة العربية التى كانت تصدر ايام حكم عبد السلام عارف يب الله نراه

على انى طوال انشغالى بالعمل السياسى فى لحقل العربى لم اختلف ابدا ولن اختلف مع قواعد حزب البعث ، بجناحيه السورى والعراقى ، ايمانا منى بان سياسة هذا الحزب ، اى قواعده وكوادره من اخلص الشباب العربى ومن اكثرهم حماسة ، وعيا ، وانما اختلفت ولا ازال اختلف مع قيادات البعث بدءا بميشيل عفلق واكرم الحورانى وصلاح البيطار ومرورا بصلاح جديد ، وصالح السعدى انتهاء بعبد الحليم خدام ، وامين الحافظ ، والعيسمر واحمد حسن البكر . ومن رأيى – وارجو أن اكون مخطئا فى هذا الرأى – ان قيادات حزب البعث ، او كثيرين من قياداته اذا التزمنا الحيدة ، والامانة سنعمل حسن نية ، او سوء نية – على اعاقة المسيرة العربية اذا لم تكن تلك المسيرة مؤتمرة بامر تلك القيادات وانها – وبالرغم من كل مابينها ، ومن اجنحتها المختلفة من خلافات ، واختلافات – تتفق على ضرورة العمل على الحيلولة بين مصر ، وبين اداء دورها القيادى ، والطليعى مهما كان القادة السياسية لمصر ! وانها – والتاريخ اصدق شاهد – تعمل للحرب عندما تكون قضية الحرب غير مطروحة او عندما لا يكون هناك استعداد عربى جدى للحرب ، وتعوق بكل ماتملك من جهود قضية السلام ، عندما يكون تحقيق السلام – فى المنطقة – محتملا ، او ممكنا : عملت قيادات البعث على اعلان الوحدة بين مصر وسورية – تلك التجربة الرائدة الخطيرة فى مسار العمل العربى الموحد – ثم عملت على افشال تلك التجربة التى انتهت بالانفصال فى سبتمبر « ايلول » ١٩٦١ فلما آل اليها الحكم والسلطة فى دمشق فى ٨ مارس اذار ١٩٦٣ ، لم تشأ ان تعيد سورية الى حظيرة الجمهورية العربية المتحدة ، وانما ابتدعت ما سمى بالوحدة المدروسة .. الوحدة التى ما تزال تدرس من عام ١٩٦٣ – عندما اصبح حزب البعث السورى حاكما – الى اليوم ! وسوف تبقى الدراسة مستمرة وقائمة طالما بقى حزب البعث مسيطرا على الامور فى سورية : قيادة حزب البعث هى التى سلمت القنيطرة عام ١٩٦٧ ، قبل أن تستسلم ، وهى التى باعت الجولان – المرتفعات السورية بثمن بخس يعرفه جيدا الاخوة السوريون المطلعون على بواطن الامور .. قيادة حزب البعث هى التى حرضت المنظمات الفلسطينية فى الاردن على الخروج على نظام الحكم هناك ، وهى التى مهدت لاخراج الفدائيين من الاردن بعد تلك المعارك الطاحنة التى تخلت فيها عن الفلسطينيين ودور قيادة البعث السورى – فى هذه الثلاثة – مكملة تماما لدور قيادة حزب البعث العراقى التى تحالفت مع جورج حبش فى التمهيد لتصفية المقاومة الفلسطينية فى الاردن بعد خطف مجموعة الطائرات ايامها ، وبعد ذلك الاتفاق السرى الذى عقده الفريق مهدى عباش فى فندق الاردن مع بعض الجهات قبل ايام من وقوع الصدام بين المنظمات الفلسطينية وبين السلطات الاردنية فى يونيو « حزيران » ١٩٧٠ ، ودور قيادة حزب البعث السورى فى تصفية الوجود الفلسطينى فى لبنان ، معروف . وهو ، حتى كتابة هذه السطور ، لايزال قائما ، ومتجددا ، ونشطا

وقد اضيف الى قيادات حزب البعث العراقى ، والسورى ، عميل اخر من نوع خاص كان للبعث العراقى والسورى معا ، او كان للجهات التى تسير البعث السورى ، والعراقى معا دور خاص فى ظهوره فى اول سبتمبر ١٩٦٩ ، ونعنى به معمر القذافى . وقد التقى الجميع ، رغم ماكان يبدو بينهم من تناقض واختلاف يصل احيانا الى حد تبادل الشتائم والقذائف الاذاعية والصحفية على بعض امور هامة وجوهرية تدل على وحدة الخط السياسى فى اعوام ٧١ ، ٧٢ ، ١٩٧٣ .

لقد كانت قيادات حزب البعث سواء فى سورية او فى العراق وكذلك معمر القذافى يستهدفون الضغط على مصر ، عندما لم تكن بعد مستعدة للحرب ، لكى تدخل الحرب ، وتحارب فتنهزم ويقضى عليها نهائيا ، وكذلك انفقت قيادات حزب البعث سواء فى سورية او فى العراق ، رغم ما بينهما من خلافات او اختلافات ظهرية ، مع العقيد القذافى على محاربة مصر ، بعد وقف القتال فى اكتوبر ١٩٧٣ .

وكانت مواقف البعث العراقى والسورى ، والعقيد القذافى متفقة ايضا – مع بعض اختلافات فى الرتوش والمظهر – فيما يتعلق بالاتفاقية الاولى لفصل القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة سيناء ، وكذلك الاتفاقية الثانية

وبعبارة موجزة يقف البعث العراقى والبعث السورى والنظام الليبى موقفا موحدا ازاء مصر عندما تتجه نحو الحرب : لا يحاربون بل يتادون بعدم الحرب ، وعندما تتجه نحو السلام ، يحاربون السلام الذى تتجه اليه مصر برفع شعارات الحرب

ولذلك ، لم يكن موقف الانظمة الثلاثة فى طرابلس ، وبغداد ، ودمشق غريبا عندما وقفوا كل جهودهم لمحاربة مبادرة السلام ، التى قام بها الرئيس السادات ومحاولة اعاقتها وقد اضيف الى هذه الانظمة الثلاثة نظام اخر كان بعيدا كل البعد عن المشاركة فى مثل تلك المؤامرات الاستعمارية التى تستهدف مصر ، وتعنى به نظام ، هوارى بومدين . اما منظمة التحرير فهى ليست حرة ، على الاطلاق ، لانها والمة ، وخاصة بعد ان انتقلت الى سورية والى لبنان فى اعقاب مذابح ايلول فى الاردن ، تحت الوصاية السورية ، وقد قابل هؤلاء وزمروا عندما ناهبوا للاجتماع فى طرابلس ، واهتمت جهات كثيرة تعرف جيدا اتجاهاتها المشبوهة – سواء فى داخل الوطن العربى ، او فى خارجه – بمؤتمر طرابلس والتقى الزعماء الكبار : بومدين ، وحافظ اسد ، وياسر عرفات بقيادة معمر القذافى ، واتخذوا قرارات اعتبروها قمة فى الايجابية والثورية و .. و .. ولم تكن فى الحقيقة الا عبارات انشائية تحمل كلمات الصمود ، والتصدى ، وكان ان نقل حافظ اسد ، ومعمر القذافى اتحاد الجمهوريات العربية الى طرابلس وكانت محاولات كثيرة استهدفت اموال الاتحاد ، وكان تجميد العلاقات مع مصر ، وهو القرار الذى بادرت مصر بالقضاء عليه عندما قطعت العلاقات السياسية ، مع كل دول مؤتمر طرابلس و .. و .. وتاكد للجميع ان فشل مؤتمر طرابلس كان ذريعا للغاية حتى ان التقاء المنظمات الفلسطينية وهو الامر الذى طبلوا له وزمروا لم يستمر الا ايام انعقاد المؤتمر فقد عادت « ريمة الى عادتها القديمة » .. وبدأت المنظمات الفلسطينية تنضم الى منظمات رفض ومنظمات تاييد

انتهى مؤتمر طرابلس الذى انعقد فى ايام ٣ ، ٤ ، ٥ ديسمبر كانون الاول « ١٩٧٧ » والذى حضره – كما قلنا هوارى ، وحافظ اسد ، ومعمر ، وعبد الفتاح اسماعيل ، وطه ياسين رمضان وياسر عرفات : بالكلام ولا شىء غير ذلك على الاطلاق ..

وبدأ « الزعماء الكبار » زعماء الكلام ، لا فى الشرق الاوسط فحسب ، بل فى العالم ، بداوا بدورهم يعدون لمؤتمر جديد اخر يعوضون به ما اصيبوا به من فشل فى مؤتمر الجزائر . وراح بومدين يزور بعض البلاد العربية ويحرضها ضد مصر ، وراح يحاول – كما حاول غيره – ازالة الجفوة الشخصية البحتة بين زعماء البعث فى سورية ، وفى العراق و .. و .. والتقى المجتمعون فى الجزائر ، وسط جو مشحون بالتوتر . لم تحضر العراق المؤتمر ، ولم تتحمس عدن لهذا المؤتمر رغم مشاركتها فيه ، لانها تعف – فى العادة – فى الجانب الذى تقف فيه العراق ، لا سورية . وما يسمى بمنظمات الرفض وهى المحسوبة ، على العراق ، بدأت بدورها تدعو الى عدم المشاركة فى المؤتمر مادام العراق لم يشترك فيه . فلما لم يحقق ما ارادته راحت تدعو الى تاجيله ، و .. و ..

وانعقد المؤتمر ، ولم يشترك فيه فى البداية معمر القذافى ، لانه اراد أن يسرق الكاميرا ، بغيابه عن الجلسة الاولى وبحضوره اثناء انعقاد المؤتمر وبالاسئلة المحرجة التى قدمها للرئيس حافظ اسد ، حول التسوية السلمية وحول الموقف من بعض القرارات الخاصة بمجلس الامن و .. و .. ثم رفض معمر القذافى بعد وصوله الى الجزائر أن يقوم بدور العراف وحسب لانه لا يريد ان تكون كل مهمته وكل اهميته مقصورة ، على اعطاء الاموال لمنظمة التحرير الفلسطينية التى تسير مسيطرة فى فلك البعث السورى وعلى اعطاء سورية الاموال ، التى قد تجعلها فيما بعد فى غير حاجة الى ليبيا ، و .. و ..

وبعد ايام من الكلام المتعق ، المزوق ، وبعد ان تاخر اذاعة البيان ساعات ، وساعات لوجود خلافات بين القذافى ، وحافظ اسد ، وبعد وبعد ، تمخض الجبل فولد فارا ، ونعنى بالفار هنا .. البيان الذى اصدره مؤتمر قمة الجزائر للصمود ، والتصدى .

ولم يخرج « البيان الهام ، والخطير » الذى سهر فى اعداده هؤلاء « القادة الكبار » .. الا ببعض العبارات الانشائية التى تتلخص فى رفض اى اتفاق نهائى يتم على حساب المصالح العليا للامة العربية وادانة اى اتفاق يمس حقوق الشعب الفلسطينى وقضيته العادلة

هذا هو ملخص البيان الهام والخطير .. الذى ظلت الامة العربية ، والعالم كله ينتظره بفارغ الصبر .. اى صبر بالطبع . ولو أن اصحاب هذا البيان ، اعادوا قراءته مرة ، ومرة لعرفوا انهم لم ياتوا ابدا بشىء جديد ، فان أحدا من العرب لايمكن أن يقبل اى اتفاق نهائى يمس المصالح العربية او يقبل اى اتفاق يمس حقوق الشعب الفلسطينى وقضيته العادلة . وان كل ما تسعى اليه مصر من جهود على المستوى الدولى انما تستهدف نصرة الحق العربى ، كل الحق العربى . ومصر – كما هو معروف للدنيا كلها – لاتقبل ابدا اى اتفاق نهائى يمس اية قضية عربية ، كما ان المشكلة الرئيسية التى تعترض طريق السلام هى القضية الفلسطينية التى تعرض مصر ، قبل اى شىء على أن تحلها .. حتى قبل ان تحل قضية سيناء !

ان اغرب ما اسفر عنه مؤتمر الجزائر هو ذلك القرار الذى طلب من ياسر عرفات – كان الله فى عونه – أن يبلغه للدول الاعضاء فى مجلس الامن ، وفى الامم المتحدة والى الامين العام للمنظمة الدولية .. وهو أن الرئيس السادات لم يكن مخولا اى تفويض يخوله حق تمثيل الشعب الفلسطينى !!

ومن ذا الذى قال ان الرئيس السادات يحمل تفويضا يخوله حق تمثيل الشعب الفلسطينى ؟

ان الرئيس السادات نلمحه فى كل مؤتمر صحفى ، او اذاعى ، او تليفزيونى ، وفى كل لقاء مع اى مسئول فى العالم كله يؤكد على ان الفلسطينيين هم وحدهم أصحاب حق تقرير مصيرهم ، بانفسهم .

ثم من ذا الذى سوف يخسر من هذا القرار : هل هو الرئيس السادات شخصيا ، ام منظمة التحرير الفلسطينية ؟ ..

ان منظمة التحرير الفلسطينية عندما تخضع لمثل هذا الضغط الواضح ، والظاهر ، فتدخل فى معركة مكشوفة مع مصر ، امام دول العالم كله ، وبالاخص امام الدول التى بذلت مصر جهودا شاقة ومضنية لتكسب تاييدها ووقوفها الى جانب القضية الفلسطينية ، هذه المنظمة هى التى تخسر ، من الدخول فى تلك المعركة المكشوفة !

ان منظمة التحرير الفلسطينية يجب ان تعرف جيدا انها اذا كانت حقا تريد أن تكسب لنفسها حق التعبير عن حركة تحرير وطنية ، ينبغى ان تكسب كل الدول وكل الشعوب ، ينبغى الا تدخل فى معارك جانبية ، لا تستفيد منها على الاطلاق ، بل تضار منها على وجه التاكيد .

وتبقى بعد ذلك كله .. كلمة نوجهها الى بومدين ، وحافظ اسد ، ومعمر القذافى ، ولا نقول ياسر عرفات لاننا نعرف جيدا ، اية ظروف قاسية يعيشها ياسر عرفات كما نعرف جيدا اية ضغوط يعانى منها ياسر عرفات !

نحن نقول لهؤلاء « الثلاثة الكبار » : انتم تحكمون شعوبكم بالحديد والنار .. ولهذا فانتم لاتمثلون ابدا الا اشخاصكم .. خير لكم ان تفيئوا الى انفسكم وان تعودوا الى الصف العربى ، الذى تحاولون تفريقه ، وتمزيقه عودوا يرحمكم الله !

صبرى أبو المجد